مقدّمـــة

إنَّ الموسيقى لغة عالميَّـة يشترك في فهمها والإحساس بها الناس جميعًا على اختلاف لغتهم؛ وذلك لأصولها الموحدة من حيث الرمز أو الإشارات التي تدل على النغم والإيقـاع المكوّنين لعناصر الموسيقى.

أقدم تاريخ للموسيقى قرأته هو أنها ظهرت في زمن نوح عليه السلام، وأنه صنع عودًا واستخرج منه الأنغام ثم فقد ذلك العود وقت الطوفان، ومن هنا لا أريد أن أسرد تاريخًا مطوّلًا للموسيقى فضلًا على أنه لا يمكن تعيين وقت ظهورها تمامًا وإنما أقول بأنها ظهرت قبل أيَّام نوح عليه السَّلام بأجيال عديدة وأنَّها ابتدأت منذ ابتدأ الإنسان يشعر بأقلّ عاطفة، فالعواطف الإنسانيَّة والموسيقى لا يفترقان أي أنَّ الموسيقى الحقيقية لم تظهر في بدء ظهور الإنسان عندما كان في درجة الانحطاط، ولكن ابتدأت منذ ابتداء ترقي الرُّوح البشريَّة وانتقالها التدريجي من الوحشيـة إلى الإنسانيَّة، وإذا قلنا إنها ابتدأت منذ ذلك الحين فليس معناه أنَّ الإنسان الأوَّل تفنَّن في الألحان والأنغام أو أنه اخترع آلات الطَّرب... كلا... فلفظة موسيقى تطلق على كل صوت يحدث أثرًا لذيذًا في النفس، ولما كان صوت الإنسان ويده هما مصدرا الأنغام والآلات؛ لذلك أقول إنَّ الموسيقى ابتدأت منذ ابتدأ الإنسان يشعر نوعًا ما فجعل يصفق ويصفر ويغني بطريقة يتلذذ بها، وكان كلَّما ترقى شعوره كانت تترقى طريقة غنائه إلى أن بلغت التَّاريخ المعروف وابتدأ اختراع الآلات وظلت في تقدُّم مستمر إلى يومنا هذا، ومن أهم أركان الموسيقى ركن الأوزان الموسيقية، وكما أن للشعر موازين مختلفة، كذلك يوجد أوزان كثيرة موسيقية لا نعرف منها إلا القليل بالنسبة إلى ما يمكن أن يُصاغ منها إلى ما لا نهاية له بواسطة تقديم وتأخير مقاطعها أو تغيير تركيبها؛ لذلك فكل إنسان يمكن أن يوجد وزنًا جديدًا غير المعروف ويلحن عليه، والألحان الموزونة هي كالشعر.

أمَّا الموَّال والتقاسيم فهي كالنثر أي بلا وزن ولو تأمَّلنا قليلًا لوجدنا أنَّ الإيقاع هو في جوهره مبدأ إلهي خُلق مع خلق الكون، فقد قال سبحانه وتعالَى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ فالمجرات والشَّمس تسبح في نظام كوني زمني فيه بداية وزمن وسرعة ثابتة، ولو نظرنا لمكوِّنات الإيقاع لوجدناها: بداية وزمن وسرعة ومستقر، فالنظام الكوني يضمن استقرار حركة الظواهر الماديَّة بما يوفر لها من التوازن والتناسب والنظام والدوام، فالإيقاع هو بنية الاختلاف بين النظام واللانظام، وإنَّ أول تأثير موسيقي شعر به الإنسان الأوَّل هو تأثير الحركات المنتظمة التي كان يسمعها من الطبيعة كأصوات بعض الطيور المغرِّدة التي يسمع منها أصواتًا منتظمة وصوت حوافر الجمال والخيول في طريقة سيرها وغير ذلك؛ فابتدأ الإنسان يصفِّق بيديه حركات متَّزنة شعر معها بشيء من اللذة، وعقب ذلك الصفير ثم الغناء ثم الآلات الموسيقيَّة فازدهرت هذه الأحاسيس بسبب أن العاطفة كانت تسيطر عليه، وتطوّر ذلك الشعور مع الزَّمن ونضج حتَّى أوصله حسُّه العبقري إلى أن أصبح في وقتنا هذا (علم الإيقاعات والأوزان) بتنوّعاتها المختلفة من خلال تأمُّله لهذا الكون الفسيح، وتلازمت أنواع الإيقاعات مع التراث الفني لمختلف المناطق والبلدان لدرجة أنه إذا تشابهت الأنغام بين منطقة وأخرى استطعنا تمييز إيقاعاتها، وكان الإنسان يشعر بالأنغام فيطرب لسماعها إن كانت متقنة وينفر من أيّ نغم فيه خلل، وهو ما يسمّونه (نشاز) وكذلك إذا اختلَّ الوزن يشعر حالًا بالخلل وينفر منه، وهذا الشّعور بالنغم والوزن يكون أقوى في البعض وأضعف في البعض الآخر طبيعيًّا أو لعلة ما، فمثلًا الرَّجل الصَّحيح الجسم والعقل تكون خطواته في المشي منتظمة كالجنود، أمَّا المريض والسَّكران والمجنون فتكون خطواته مختلَّة وغير منتظمة، وكذلك الإيقاع الشعري من شأنه أن يدفع الشَّاعر بسبب طول البيت إلى إضافة زوائد تخلّ بالتجربة الشعريَّة، إذ يضطر الشَّاعر إلى الإتيان بألفاظ لا حاجة للمعنى إليها إلى أن يصل إلى قافية.